صلح الإمام الحسن عليه السلام حفظ النظام العام وحقيقة الاتفاق السياسي

المدرس الدكتور
محمد نعناع حسن
بعثة الامم المتحدة للدراسات التقويمية (امسام) بغداد

مقدمة:

إنه السبط الحسن بن علي عليه السلام ريحانة الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله الموصوف بانه امام قام أو قعد، والمنزه من الزلل والخطل بنص القرآن الكريم والذكر الحكيم.

الجأته الظروف إلى عقد صلح مع عدو بغيض بسبب قلة الناصر وتخاذل الصديق واجتماع الناس على دنياهم واقترابهم من الباطل، فبادر إلى الحفاظ على روح الشريعة بصلح صاغ بنوده بنفسه، مراعياً فيه الحقوق، الواجبة دينياً، واللازمة إنسانياً، والمشروعة اجتماعياً، والمرغوبة سياسياً.

ولم يعد صلح الامام الحسن بن علي عليه السلام مجرد حدث عابر في التاريخ الإسلامي وتحولاته السياسية، بل يعد مفصلا من مفاصل الفكر السياسي الإسلامي، وتطوراته الواقعية وارتباطاته الشرعية والقانونية والشعبية.

ورغم وضوح بنود الصلح، وتبنيها لمطالب شرعية ضرورية في تلك الفترة الصعبة من تاريخ الامة الإسلامية، الا ان الطرف الاخر المتمثل بمعاوية بن ابي سفيان لم يحترم تلك البنود، لتبدأ بسيطرته على مقاليد السلطة مرحلة جديدة من مراحل التدليس والتشويه للإسلام الحنيف وثوابته، ومع بدء هذه المرحلة الخطيرة تمكن الحزب الاموي من فرض اسلوبه الخاص على الامة، للتنصل من الاتفاق السياسي مع الامام الحسن عليه السلام، وخصوصا فيما يتعلق بمصير السلطة، وقيادة الامة الإسلامية ورعاية المصالح الاجتماعية، وعدم التعرض للنخبة الخيرة التي والت الامام علي عليه السلام وسارت في طريقه.

واستمرت النغمة النشاز التي تعزف على وتر ضعف شخصية الامام الحسن عليه السلام القيادية، ولم تُخضع بنود الصلح للمناقشة الموضوعية، وخصوصا في جانبها السياسي الواقعي في ذلك الوقت، فضلا عن الاستفادة من تجربة صلح الامام مع معاوية في المرحلة السياسية الراهنة، تحقيقا للأمن العام وحفظ المصالح العليا للشعوب، فضلا عن حفظ الدين عن طريق السلم والتعايش، رغم تأكيدنا على الظلم الذي لحق بالإمام الحسن شخصيا وباهل بيته واصحابه بل بالمجتمع عامة بعد سيطرة معاوية والاسرة الاموية والمروانية على مقدرات الامة الإسلامية، لذلك لابد من الاستمرار في توضيح الاسباب التي دعت الامام لعقد هذا الاتفاق والظروف التي عقد فيها الصلح.

ولان هذا البحث بحث موجز وفصوله مختصرة وفكرته مرتكزة على الاستفادة من تحليل بنود الصلح في جوانبه الموضوعية فأننا لن نقف طويلا مع بيان الاسباب وحقيقة الظروف التي احاطت بمرحلة الصلح الا بقدر ما يحتاج البحث وما تستلزمه المطالب المطروحة.

وسنستفيد من ثلاثة مواد تاريخية في هذا البحث وهي: (بنود الصلح، وتصريحات طرفي الصلح، ومواقف الشخصيات المؤثرة في تلك الحقبة من التاريخ الإسلامي).

كما سنتبع الطريقة الشائعة في ترقيم مواد المعاهدة ومسألة دمج البنود وفصلها حسب الحاجة الموضوعية لها، وهي طريقة اقرب إلى الطريقة التي عمل بها "الشيخ راضي ال ياسين (طيب الله ثراه)" في كتابه القيم "صلح الحسن".

ويتكون البحث من تمهيد يتضمن بعض الايضاحات الخاصة بتفاصيل البحث وفصلين يشتملان على:

الفصل الاول: صلح الامام الحسن عليه السلام وحفظ النظام العام، ونبحث فيه (السلم الاجتماعي وضرورات التعايش) و(رعاية مصالح الامة وحماية

النخبة المؤمنة).

والفصل الثاني: الأهمية الاستراتيجية لعقد الاتفاقات السياسية لبناء الدولة، ونبحث فيه: (الفرق بين الصلح من اجل السلطة والصلح من أجل المجتمع) و(الاتفاق السياسي من أجل الاستقرار).

كما يتضمن البحث خاتمة لبيان النتائج الايجابية لصلح الامام الحسن وضرورة الالتفات اليها لترسيخها في الاتفاقات السياسية الحالية من أجل حقن الدماء وصنع فرص التعايش والتسامح.

تمهيد:

سنوضح في هذا التمهيد اربعة افكار تتعلق بدراسة بنود الصلح، وتوجهات طرفي الصلح (الامام الحسن عليه السلام) و(معاوية) من اجل انهاء الازمة السياسية التي اريقت فيها الكثير من الدماء بسبب العمليات العسكرية الحربية التي استمرت لمدة خمس سنوات (٣٥ - ٤٠هـ) وانعكست فتنة اجتماعية اخلت ببناء الدولة الإسلامية وهذه الافكار هي:

الفكرة الأولى: هل اصبح صلح الامام الحسن عليه السلام مع معاوية طريقة لإدارة الحكم فيما بعد؟ وما هو تأثير الصلح على مسيرة الفكر السياسي الإسلامي؟

فمن الضروري البحث في المذكرات التاريخية السياسية الإسلامية لاستيضاح هدف كل من طرفي الصلح، ويتبين من البحث الموضوعي ان الامام الحسن بن علي عليهما السلام استهدف فكرتين اساسيتين اراد تحقيقهما من خلال الصلح مع معاوية، اولهما: النص على حقه وحق اخيه الامام الحسين في السلطة كوريثين للرسول الخاتم صلى الله عليه وآله، وهذا ما لم يخالفه حتى معاوية الطامع بالسلطة[1]. وثانيهما: عدم النص على شرعية معاوية كأمير للمؤمنين في الاتفاق المعقود بين الطرفين، وهذا يعني نفي خلافته للرسول الاكرم، وموافقة معاوية على هذا الشرط، وهذا ما كان ينبغي ان يفهمه المسلمين جميعا في ذلك الوقت[2].

أما معاوية فكانت اهدافه واضحة تماما فقد كان اكثر همه ان يكون ملكا على الناس، وقد تجلى هذا الامر عندما ناداه سعد بن ابي وقاص عند دخوله عليه بـ"السلام عليك ايها الملك"[٣] وصحيح ان معاوية كان منكرا لما قاله ابن أبي وقاص ولكنه في حقيقة الامر كان يمارس دور الملك لا دور الخليفة للرسول الخاتم صلى الله عليه وآله.

لذلك لم يكن هناك ارتكاز فكري من قبل الاعم الاغلب من المفكرين والا رغبة سياسية من السلاطين والملوك بجعل صلح الامام الحسن طريقة لإدارة الحكم أو ان يكون الصلح نظرية صالحة يتم اللجوء لها في اوقات مشابهة، بل اصبحت الغلبة والخديعة هي المرتكز في الفكر السياسي للكثير من الطوائف الإسلامية، وثمة تناقض عجيب في هذا الباب فهناك من الفقهاء من يرفض تنازل خليفة أو سلطان أو أمير عن حقه بمنصبه لشخص اخر، ولكنهم يمدحون الامام الحسن على ما قام به من صلح مع معاوية[٤].

ومع عدم فهم العامة لصلح الامام الحسن بل اقدام الكثير منهم على اسقاط بعض البنود واضافة بنود اخرى تتفق مع افكارهم ومعتقداتهم، مع كل ذلك، نشط الشيعة لتوضيح بنود الصلح واعتبروه نظرية مؤثرة في الفكر السياسي الإسلامي وعده فقهاء كبار طريقة ناجحة لإنقاذ الامة الإسلامية من حرب طويلة وفتنة عمياء رغم ان وصول السلطة إلى بني امية بشكل كامل لم يكن أمراً هينا على المجتمع الإسلامي عموما وعلى آل البيت واتباعهم خصوصاً.

الفكرة الثانية: ما هي حقيقة الصلح؟ هل هو مصالحة ورضاً من الحسن بن علي عن معاوية؟ أم هو هدنة؟ أم غير ذلك؟

طبعاً اكيد نحن نستبعد ان يكون الصلح بيعة لأن الامام الحسن رفض أساساً منح معاوية لقب امير المؤمنين فضلا عن ان يبايعه بيعة شرعية ملزمة، أما أن يكون صلح بمعنى التراضي مع معاوية فهذا لا يصح أيضاً لأن الإمام الحسن ما انفك

ينتقد ال امية ومعاوية تحديداً.

فالأمر اذن بين ان يكون صلحا لإيقاف الحرب وهذا بدوره سيؤول إلى الهدنة وهي مؤقتة لأسباب تتعلق بانكسار معسكر الحسن بن علي، وهذا ما يتبين من البند المتعلق بمطالبة الحسن معاوية بان تعود السلطة اليه أو لأخيه الحسين بعده، أو مراعاة لتفكير سياسي اخلاقي ونمط شرعي متوارث في البيت العلوي، وهذا ما يكشف عنه قول الحسن عليه السلام: (ايها الناس ان الله هداكم بأولنا، وحقن دماءكم باخرنا، وقد سالمت معاوية وان أدري لعله فتنة ومتاع إلى حين)[٥]. ومن هذا الخطاب يتبين ان الامام الحسن كان يسير بسيرة ابيه علي ابن ابي طالب عندما قال: (لاسالمن ما سلمت امور المسلمين)[٦].

الفكرة الثالثة: هل يمكن لدراسة معاصرة في بنود الصلح ان تبتعد عن توظيف نصوص الصلح وتصريحات الفريقين دون ان تستند اليها موضوعا وتصنيفا؟ أو ان تبتعد عن الظروف المحيطة بالصلح؟ وهل من الممكن ان تقتصر المقارنة بما قام به الامام الحسن على ما يجري في المجتمعات الإسلامية ام من الممكن ان تتعدى المقارنة إلى حالات في العالم اجمع حتى خارج اطار العمل الإسلامي؟

بالتأكيد لكل دراسة معاصرة في حالة تاريخية الاسس اللازمة لربط التاريخ بالحاضر، واليات الربط هنا ستكون عبارة عن روايات الفريقين لما حدث في ذلك الوقت اضافة إلى تحليلات المعاصرين لحادثة الصلح وهنا لا يمكن ان يعد هذا التوظيف سردا أو رجوعا مجردا إلى التاريخ بل توظيفا من اجل استجلاء الواقع ومقارنته بما يجري لترتيب اثرا ذو فائدة معاصرة.

لذلك من الضروري ان تكون بنود الصلح وتصريحات الامام الحسن ومعاوية وبعض الآراء المعاصرة للحادثة موادا اصيلة في هذا البحث تساعدنا في الوصول إلى ما نريد اضافته من افكار حول الصلح وحول الاستفادة منه في وقتنا الراهن.

كما ان القراءة المعاصرة ليس بالضرورة ان تستند إلى حالات حصلت في البيئة الإسلامية نفسها التي حصل فيها صلح الامام الحسن بل من الضروري الاقتراب من حالات خارج الاطار الإسلامي، وخارج التركيبة الديمغرافية السكانية أو البشرية للمجتمع الإسلامي، بل وحتى خارج الجغرافيا التي عليها عقد الصلح، وذلك لما لهذه المحاولات من تطوير للمعنى الحقيقي للصلح والابتعاد بأفكاره نحو العالمية.

الفكرة الرابعة: نؤكد على ان هذا البحث لا يعير اهتماما للمسائل الغيبية، وليس ذلك لعدم الاعتقاد بها، وانما لتجريد البحث من القضايا الاعتقادية ذات التفسيرات المركبة والآراء المتعددة، ولعلاقة البحث بمسائل اجتماعية وسياسية ذات تأثير واقعي محسوس، لكن عدم الاهتمام هذا لا يبعدنا عن استخدام وتوظيف بعض التصريحات القريبة من الفهم الغيبي وخصوصاً من طرف الامام الحسن عليه السلام لان الكثير من تصريحاته مرتبطة بالعمود الفقري للصلح وهو حماية النظام العام وحقن دماء النخبة الصالحة.

وفي نهاية هذا التمهيد يجب ان نذكر بأننا نعتقد بان البحوث التي تناولت صلح الامام الحسن بالتحليل والمناقشة، والتوصيف والتعريف، والمقارنة والمقاربة، اضافت افكارا غاية في الروعة، وعلى مستوى عال من الايجابية والموضوعية، ولم يبق شيء من جوانب الصلح الا وتمت دراسته، اما بشكل مدائحي وهذا اسلوب اغلب الباحثين الشيعة لدراسة حياة ائمتهم، أو بشكل حيادي كما قام بذلك بعض المستشرقين، أو بشكل تضليلي كما عهدنا نتاج وعاظ السلاطين وخصوصا في دولة بني امية، ولكن رغم ذلك يبقى الاختلاف حول بعض البنود والمفاهيم التي تضمنها الصلح رهينة بالقناعة الشخصية لكل باحث أو دارس، ولطالما تدخلت النوازع الطائفية والتعصبية في دراسة الاحداث فحرفتها إلى غير طريق الموضوعية، ويبدو ان بنود صلح الامام الحسن مع معاوية نالت ما نالته من هذا النوع من الدراسة والبحث، لذلك لسنا معنيين بتغيير القناعات بقدر ما نعتني

بعرض ما نعتقد بانه صحيح وموثق، وملائم للمقاربة المعاصرة.

الفصل الاول

صلح الامام الحسن عليه السلام وحفظ النظام العام

مما لاشك فيه ان الانبياء والائمة عليهم السلام انما وجودهم رحمة للناس، فمن هذا المنطلق يتبين ان الاساس من وجودهم، حفظ النظام العام، ونشر السلم، وتوطين التعايش، وتعزيز الثقة الاجتماعية، ورعاية المصالح العامة والخاصة قدر المستطاع، عبر الالزام الشرعي والاحترام الاخلاقي، ولربما يظن الكثير من الناس بان بعض المواقف للأنبياء والائمة عليهم السلام تتعارض مع المصالح وتدعم قوة المستكبرين كما هو الحال في بعض الاوصاف لصلح الامام الحسن مع معاوية، حيث يرى مجموعة من الباحثين بان الصلح فتح لمعاوية الطريق لإقامة سلطة قمعية، متناسين المصالح العامة التي رسخها الصلح.

وهذا ما نبحثه في هذا الفصل عبر قراءة في افكار السلم الاجتماعي وضرورات التعايش ورعاية مصالح الامة وحماية النخبة المؤمنة، وهذه الموضوعات إذ تبحث من حيث علاقتها بصلح الامام الحسن، فإنها حاجة اجتماعية راهنة لما يمر به المجتمع العالمي من ظرف يدعو إلى تعزيز فرص السلم والتعايش الاجتماعي، ولو بالتنازل عن بعض الحقوق إلى وقت قريب تُسترد فيه.

المبحث الاول

السلم الاجتماعي وضرورات التعايش

قال الامام السبط الحسن بن علي عليه السلام ((اني رأيت هوى معظم الناس في الصلح، وكرهوا الحرب، فلم احب ان احملهم على ما يكرهون، فصالحت بُقياً على شيعتنا خاصة من القتل، فرأيت رفع هذه الحروب إلى يوم ما، فإن الله كل يوم هو في شأن))[٧].

هنا يبين الامام أنه ركن إلى الصلح ومسالمة معاوية لأجل تحقيق رغبة الناس والنزول عند رأيهم ابقاءً لفرص التعايش وحفاظاً على المجتمع من التفكك بسبب الحروب التي يرى الإمام انها ستودي إلى خراب كبير.

ومن هذا النص نستكشف حقيقتين:

أولهما: ان الانهيار السريع لمعسكر الإمام الحسن سبب تضعضعاً في رأيهم وهنا على القائد المحنك ابرام اتفاق سريع يحفظ السلم الاجتماعي، وخصوصا ان هذا السلم الاجتماعي سيكون مشروطا حسب المادة الخامسة من مواد الصلح والتي تنص على:

((أن الناس آمنون حيث كانوا من ارض الله في شامهم وعراقهم وحجازهم ويمنهم، وأن يؤمن الاسود والاحمر، وأن يحتمل معاوية هفواتهم، وأن لا يتبع أحدا بما مضى، ولا يأخذ أهل العراق بإحنة، وأن لا ينال أحداً من شيعة علي عليه السلام وأنهم آمنون على أنفسهم وأموالهم ونسائهم وأولادهم، وأن لا يتعقّب عليهم شيئا ولا يتعرض لهم بسوء ويوصل إلى كل ذي حقّ حقّه))[٨].

ثانيهما: من ضرورات التعايش ان يأمن مقربو الامام وحاضنته الاجتماعية والعقائدية من المتابعة والاعتقال والاغتيال حتى لا تعود الثارات من جديد ويفلت زمام الامور من يد الدولة التي بوجودها تكون مسؤولة عن تطبيق القانون، وهنا اصر الامام الحسن على اشاعة ضرورة حماية شيعة الامام علي عليه السلام فالنص اعلاه لم يكن الا اعلانا عما تضمنته وثيقة الصلح، وهذا المطلب ايضا كان شرطا ملزما لمعاوية واصبح فيما بعد كاشفا عن سوء نيته. وضمن الامام كقائد حصيف حقوق اتباعه حيث جاء في المادة الرابعة من مواد الصلح: ((استثناء ما في بيت مال الكوفة وهو خمسة آلاف ألف فلا يشمله تسليم الامر، وعلى معاوية أن يحمل إلى الحسن ألفي ألف درهم، وأن يفضل بني هاشم في العطاء والصلاة على بني عبد شمس، وأن يفرّق في أولاد من قتل مع أمير المؤمنين

يوم الجمل، وأولاد من قتل معه في صفين ألف ألف درهم، وأن يجعل ذلك من خراج دار أبجر))[٩].

إذن يبدو ان الامام الحسن دافع بشكل مدروس عن اعادة السلم الاجتماعي وتفعيل ضرورات التعايش، وبدفاعه عن هذين المفهومين الانسانيين واجبار معاوية على اقرارهما فقد اسقط كل الحجج من يد معاوية للتعدي على حقوق الامة واضعاف خاصة الامام الحسن - طبعا هذا من الناحية الشرعية والقانونية - والا فان معاوية قد نقض كل الاتفاقات وصنع لنفسه ملكا عبر بنود الصلح، ولكن كان المفروض بالرأي العام ان يحتج وعلى النخب ان تستنكر ما يقوم به معاوية من خرق لخارطة الطريق السياسية التي اتفق عليها مع الامام الحسن.

لقد الزم الامام الحسن معاوية الزاما شرعيا ببنود الصلح واستجاب معاوية ببذل العهود الغليظة على نفسه بتطبيق ما جاء في صحيفة الصلح، كما ان الامام بصياغته الممنهجة وبإبداعه البلاغي اوصل الوثيقة التصالحية إلى مقام الوثيقة القانونية الاجتماعية.

وبهذا الفن البالغ التأثير وبتلك الحنكة الدبلوماسية الراقية اراد الامام الحسن ضمان حقوق الامة والحفاظ على الخاصة في اطار كيان الدولة الشرعي والقانوني، خصوصا ان الامام بدأ بشرط لو كان قد التزم به معاوية لما كتب الامام غيره من الشروط وهو ما مضمون المادة الاولى من مواد الاتفاق ودعا فيه معاوية إلى العمل بكتاب الله وسنة رسوله.

ويبدو ان العالم اليوم بحاجة إلى اتفاقات من هذا النوع سيما اذا التزم الطرفين بوصفة شبيهة بما وصفه الامام الحسن عليه السلام فالحفاظ على اسس السلم وتعزيز فرص التعايش ضرورات انسانية، ومن خلال رؤيتنا لبعض الصراعات في العالم وهي بالتأكيد اما صراعات سياسية حول النفوذ أو صراعات فكرية وايدولوجية من اجل الاعتراف نجد ان الكثير منها تم حله باتفاق قريب لما ضمنه

الامام الحسن في وثيقته السامية، ويمكن الاشارة بهذا الصدد إلى حل الازمة البوسنية - الكرواتية - الصربية، فقليل من التنازلات من هنا وهناك انهت المشكلة المستعصية.

ولربما يمكن الاستفادة من بعض بنود الصلح الذي ابرمه الامام الحسن مع معاوية لحل الازمة السورية الراهنة سيما اذا ما وجد طرف ضامن لإعادة السلام الاهلي وتعزيز فرص التعايش مع قليل من التنازلات.

المبحث الثاني

رعاية مصالح الامة وحماية النخبة المؤمنة

بعد ان وقع معاوية بن ابي سفيان وختم اسفل صحيفة بيضاء[١٠]، دعا الامام الحسن إلى تسطير شروطه للصلح، واقسم على تنفيذ كافة بنود الصلح، فما كان من الامام الحسن بحسب الظروف التي تحيط به وبجماعته الصالحة الا ان يستجيب لما يريده معاوية، ويكتب في هذه الصحيفة بنود شرعية تحفظ مصالح الامة وتحمي الكتلة المؤمنة التي وقف مع الحق.

ولرعاية مصالح الامة لابد ان يخطط القادة الملهمون، فهذه المصالح تُحفظ بطريقتين لا ثالث لهما:

الطريقة الاولى: اتباع نظام تفكير منطقي، متسلسل باحداثه، موضوعي بأوصافه، اذا نجحت مقدماته كانت نتائجه ايجابية، وهذا ما اراده الامام الحسن من خلال البند الاول فقد خط الامام بيده الشريفة تحفة شرعية قانونية اخلاقية منطقية لاستمرار دين جده المصطفى صلى الله عليه وآله عندما الزم معاوية بـ"العمل بكتاب الله وسنة رسوله"... فقط... دون الزيادة على ذلك بـ"وسيرة الخلفاء الصالحين" لان ذلك مخالف لنمط تفكير البيت العلوي، إذ ان الفكرة الاساسية من موافقة الامام علي والامام الحسن عليهما السلام على قبول بيعة القوم واعتلاء منصب الحكم هو تحقيق العدالة والحكم بما انزل الله وهذا يتنافى مع قبولهم بالعمل بسيرة الخلفاء لما فيها من تعدي

على شرع الله[١١]، ثم ان الامام الحسن لم يكن مجبورا على تضمين هذه الزيادة وذلك لسبب بسيط وهو ان معاوية ارسل له صحيفة بيضاء يكتب فيها ما يشاء.

ولأن الامام الحسن يعلم تمام العلم بان معاوية لن يهتدي للعمل بكتاب الله وسنة رسوله راهن على الوقت ليكتشف الناس بانهم اختاروا طريقا غير صحيح بخضوعهم لأراجيف معاوية، وهنا تبدو بعض الاعتراضات على صلح الامام الحسن مبررة من قبل بعض اتباعه أو المنضمين إلى فريقه، إذ يبدو انهم كانوا يعلمون بان معاوية ليس اهلا للأمر، وأنه سينقض الصلح ويخرق البنود المتفق عليها، ولكن هذه الاعتراضات وخصوصا المتطرفة منها جافت الحقيقة واستهترت بشخصية الامام الحسن عقائديا وقياديا.

ومن ابدع انماط التفكير المتسلسل في فكر الامام الحسن هو الحاقه مباشرة مادة تتعلق بعودة الامر له حيث جاء في هذه المادة: (ان يكون الامر للحسن من بعده، فأن حدث به حدث فلأخيه الحسين، وليس لمعاوية ان يعهد به لاحد)[١٢]. فهذا تفكير محكم والية سياسية بناءة ترجع الامر إلى اهله بعد حين، سيما مع معرفة الناس من هو الحسن والحسين؟

ثم ان الامام الحسن بتضمينه عدم احقية معاوية بالعهد لاحد من بعده فقد ساعد على الاقل في عدم توارث السلطة وارجاعها اما لأهلها، أي للبيت العلوي، أو ان تكون شورى بين المسلمين، وهذه فكرة بناءة اخرى تحتمل ان تكون قاعدة لتقديم الافضل وخصوصا اذا تشكل فكر سياسي ممانع للتوارث ومحافظ على معيار الافضلية في الحكم.

الطريقة الثانية: الحفاظ على مقومات الامة الحية برد الشبهات وردع الافتراءات عنها وتنمية مقدرات المجتمع المادية، واهم من ذلك الحفاظ على الجماعة الواعية.

كانت هذه المقومات لبقاء الامة حية محتفظة بكرامتها ورأيها فيما تريد،

حاضرة في التفكير الاستراتيجي للإمام الحسن، وقد طالب معاوية بتنفيذها وعدم التغاضي عنها، ولضرورتها اكد عليها الامام الحسن في اكثر من بند من بنود الصلح فمرة يذكرها بشكل عام كما في النص التالي: ((على ان الناس امنون حيث كانوا في ارض الله.....))[١٣] وهنا يريد الامام بيان اهمية الامن المجتمعي وضرورته في النظام الإسلامي، كما انه يعبر عن مسؤوليته عن الحفاظ على المجتمع الإسلامي، بل المجتمع الانساني بأكمله لان مفردة (الناس) شاملة لغير المسلمين وخصوصا ان هؤلاء لهم حقوق في النظام الإسلامي، ونجد الامام يشخص الموضوع بدقة فيتحدث بشكل واضح عن ضرورة حماية شرائح اجتماعية بعينها من سلوكيات الحاكم المستقبلي كما في النص التالي:((وان لا يتبع احدا بما مضى، وان لا يأخذ اهل العراق باحنة...))[١٤]، وهذا النص يعبر عن المصالحة السياسية الحقيقية التي تحفظ الامن القومي للبلاد، ويستمر الامام بتشخيص من يجب عدم التعرض لهم فيقول:

أ. على ان لا يبغي للحسن والحسين، ولا حد من اهل بيت علي.

ب. امان اصحاب علي حيث كانوا.

ج. لا ينال احد من شيعة علي بمكروه.

واكثر من ذلك هو اصرار الامام الحسن على تفصيل طبيعة عدم التعرض لهذه الشرائح والشخصيات فقد نوه لمعاوية بضرورة عدم الاهانة أو التخويف سرا أو جهراً.

وما هذه الوصفة العميقة في مضمونها وشكلها الا لدراية الامام بأبعاد الخطة المؤامراتية لمعاوية ولدراسته السلوك الاموي، فكل ما اشرنا له اعلاه من موافقة معاوية على عدم التعرض لتلك الشرائح والشخصيات تم خرقه وامام انظار الرأي العام وطوال عشرين عاما من حكم معاوية، افلا يعتبر فكر الامام الحسن عليه السلام فكراً منظما واعياً للوابس الدهر؟.. ولكن اه من قلة الناصر وتأثير الشبهات

في عقول الناس!!!.

الفصل الثاني

الأهمية الاستراتيجية لعقد الاتفاقات السياسية لبناء الدولة

لا يمكن لأي شخص ان ينجز اتفاقا سياسيا يوظف من خلاله كل مفاهيم السلم لصالح الامة، وانما هذا قدر القادة الكبار، المتعالين في افكارهم، المتسامين في معنوياتهم، الطامحين في سلوكياتهم، المنتصرين في منهجيتهم، المخططين لمستقبل امهم، هؤلاء هم فقط من يعقدوا الاتفاقات الاستراتيجية التي تفضي إلى نتيجة سلمية في ذاتها، وهذا بالضبط ما قام به السبط الحسن بن علي عليه السلام فقد رسم معالم الطريق لأبناء المجتمع الإسلامي من خلال صلحه مع معاوية بن ابي سفيان على اساس مراقبتهم لتنفيذ الصلح واهتمامهم بشؤونهم التي تضمنها، وهذه مسؤولية كبيرة يضعها الامام على عاتق الامة، ولكنها كأمة حية وصفها القرآن الكريم كخير الامم، عليها ان تتحمل مسؤوليتها.

في هذا الفصل سنناقش فكرة عقد الاتفاقات الاستراتيجية الملبية للحاجة الأساسية للامة الإسلامية في ذلك الوقت وهي اهمية بناء الدولة وتعضيد دورها القانوني.

المبحث الاول

الفرق بين الصلح من اجل السلطة والصلح من اجل المجتمع

عقد الامام الحسن صلحا مع معاوية يعرف العالم الان باسره ما هي اسبابه، وما هي الظروف التي احاطت بالإمام الحسن لمصالحة معاوية أو مسالمته دون مبايعته أو الرضا بأفعاله، وكان السبب الابرز هو تخاذل اصحاب الامام الحسن عن القيام بواجباتهم الشرعية والسياسية ومنها عدم تحملهم الاستمرار بإعلان الحرب على الباطل.

الحقيقة الاخرى التي لا يرفضها أي منصف في عالمنا المعاصر هي ان معاوية نال ما أراد من خلال صلحه مع الامام الحسن، وحقق على طريقته الخاصة رغبته في اعتلاء عرش السلطة، واذا كان غامضا وغير واضح في تصرفاته وسلوكياته قبل الصلح فقد فضح نفسه بشكل واضح وفي غير مرة بعد الصلح، ولا ادل على ذلك من قوله ((ما قاتلتكم لتصلوا، ولا لتصوموا، ولا لتحجوا، ولا لتزكوا، وقد أعرف إنكم تفعلون ذلك، ولكن إنما قاتلتكم لأتأمر عليكم، وقد أعطاني الله ذلك وأنتم له كارهون))[١٥].

فهذا هو هدف معاوية من الحرب ومن ثم الصلح، وهو هدف واضح لا يحتاج إلى مزيد من التعليق، وبملاحظة ذكره في الكثير من المصادر العامة والخاصة لا يبقى مجال لنفيه عن معاوية.

كما ان معاوية ذكر صراحة انه رضي بشروط الامام الحسن في وثيقة الصلح لأنها قد اتته بالملك، كما روى ابن كثير قول معاوية "رضينا بها ملكا"[١٦].

أما رغبة الامام الحسن في الصلح فكانت تختلف تماما فهي أولاً: رغبة اكتنفتها حسرة كبيرة لهذا الهبوط في مستوى وعي الامة، وثانياً: هي رغبة خالصة لوجه الله لا مجال فيها لحب الذات.

قال الامام الحسن ((ما تدرون ما فعلت، والله للذي فعلت خيرا لشيعتي مما طلعت عليه الشمس))[١٧]، وقال عليه السلام: ((ما اردت بمصالحتي الا ان ادفع عنكم القتل))[١٨].

وهذه المعاني تدل بان استمرار الحرب مع جهود معاوية الخبيثة لتفكيك معسكر الامام الحسن تعتبر خسارة كبيرة وعلى القائد القارئ لشؤون الحرب ان يعقد اتفاقا محترما في مثل هذه الظروف لدفع القتل عن معسكره وهذا ما فعله الامام الحسن، بل وعن الحاضنة الاجتماعية لأفكاره السياسية والعقائدية، وليس كما يفعل الكثير من القادة البراغماتيين من استمرار بالحرب بدون حساب لنتائج

المعركة أو يفكروا في طرق بقائهم على حساب بقاء جنودهم ومقدرات بلادهم.

أما الشرط الذي يتعلق برجوع الامر للحسن بعد معاوية وضمنه الامام في معاهدة الصلح كثاني بنود المعاهدة فلم يكن طلبا للسلطة أو حبا بها واملا في دفع الضرر الان وحصد المنصب غدا، وانما كان حسب قاعدة الأهلية والافضلية التي يتمتع بها الامام الحسن، وليس عيبا ان يطلب المرء منصبا يرى أنه أهل له، فهذا النبي العظيم يوسف عليه السلام يطلب من الملك منصبا يرى انه يحقق من خلاله الخير للناس.

ثم ان القائد الفذ لا يترك اصحابه وجماعته، ويصالح بدون ان يحقق مصالح المجتمع، وعلى هذه القاعدة الانسانية خاطب الامام الحسن الناس قائلاً: ((اخذت على معاوية ان يعدل فيكم، وان يوفر عليكم غنائمكم، وان يقسم فيكم فيأكم))[١٩].

هذا الخطاب لم يكن مجردا بل مشفوعا برضا صاحب الامر الجديد وبحضوره لا في غيابه، فبعد هذا الضمان الاجتماعي الملزم يلتفت الامام الحسن إلى معاوية ويطلب اقراره على هذا المطلب، فيوافق معاوية.

ولم تكن النوازع الشخصية والعواطف الذاتية من يحرك حركة الامام الحسن الاجتماعية ولم تكن له رغبة بحرب معاوية ولا غيره من اهل القبلة فمثل هذه العواطف والنوازع لا تجد طريقها إلى قلوب وعقول القادة الملهمين والمصلحين الاجتماعيين، فلو كان غير الامام الحسن من اتفق مع معاوية لتحين الفرص للايقاع به واحراجه في اوقات محنته التي مرت عليه رغم ان الامام الحسن باق على رؤيته لمعاوية ومعرفته بشخصيته، ففي حرب معاوية على "الحرورية" ارسل كتاب للإمام الحسن يطلب فيه من الامام الحسن قتالهم، فيرد الامام قائلاً ((لو اثرت ان اقاتل احدا من اهل القبلة لبدأت بقتالك، فأني تركتك لصلاح الامة وحقن دمائها، والله لقد كففت عنك لحقن دماء المسلمين، ما احسب ذلك يسعني، أفاقاتل عنك قوما انت والله اولى بالقتال منهم))[٢٠].

إنها لغة تصعيدية عالية ولو اراد الامام التقرب من معاوية املا في السلطة لقبل

عرضه الدخول معه في الحرب، ولتعززت فرص الامام في نيل السلطة بعد معاوية، ولتجنب الامام محاولات التضييق ومن ثم الاغتيال، ولكن هي المبدئية الشرعية والدراية والحصافة السياسية التي تمنع الامام من الانقياد إلى الشهوات الدنيوية، لصناعة الاثر البالغ لقواعد رعاية المجتمع وتقديم مصالحه على مصالح الذات.

المبحث الثاني

الاتفاق السياسي من اجل الاستقرار

تتفق الوثائق التاريخية التي أرخت لصلح الامام الحسن مع معاوية على ان الاتفاق كان سياسيا بامتياز من الطرفين، لكنه كان سياسيا براغماتيا من طرف معاوية - وهنا البراغماتية ليس بمعناها الانساني التداولي وانما ببعدها النفعي الذرائعي- وهذا ما يختلف فيه معاوية مع الامام الحسن الذي عقد اتفاقا سياسيا مبدئيا ليعمل على كشف الحقائق امام الرأي العام ويعطيه دوره في عملية التقدير الواقعي للمواقف السياسية في ادارة الدولة.

ومما يؤكد ذلك ان الامام الحسن ركز على ان الاتفاق مجرد هدنة سياسية، وان بنود الصلح سلبت الشرعية القيادية من معاوية عبر اصرار الامام الحسن على ان لقب امير المؤمنين غير لائق بمعاوية، كما ان البند الثاني حسب اغلب التلفيقات لنصوص المعاهدة في الكتب القديمة والحديثة اشترط عودة الامر للإمام الحسن بعد معاوية وإذا حدث حدث ما للإمام الحسن فالأمر لأخيه الحسين.

ويتبين للباحث البصير والناقد المتمعن ان التحليل الموضوعي لصلح الامام الحسن مع معاوية يؤدي إلى ان الصلح انما هو اتفاق سياسي لوقف الحرب وهو اقرب إلى الهدنة مع معاوية وجلاوزته، بل الامر ابعد من ذلك يتبين ان الامام الحسن ابتكر طريقة لإبقاء كيانين داخل الامة الإسلامية لظروف قاهرة لا تسمح بوجود خلافة شرعية موحدة[٢١]، كيان يحافظ على قوته ويحتفظ بامكانياته المالية وموارده البشرية، وكيان يظن انه انتصر واخضع الطرف الاخر، الا انه في حقيقة

الامر ان الكيان الثاني الذي يترأسه الامام الحسن استمر بممارسة كل ما يراه شرعيا وغير مخالفا للاتفاق السياسي المنعقد، وانه بوجود قيادته المتمثلة بالحسن بن علي قادر على النهوض في أي وقت يشاء.

ومثل هذا الاتفاق السياسي مكن جبهة الغلبة بالسيف من التعايش مع المعارضة المحملة بالأفكار السلمية العازمة على بناء الدولة في ظل استقرار نسبي فرضته معاهدة الصلح، وهذه المناورة الدبلوماسية من الامام الحسن قطعت الطريق على معاوية من ان يفتك بالمعسكر الاخر وينهيه عن بكرة ابيه وتختفي بذلك كل الاصوات البناءة والطاقات الواعية التي ستؤثر ايجابيا في مستقبل الامة الإسلامية.

وعندما نقول بان الاتفاق السياسي في فكر الامام الحسن كان مبدئيا نعني بانه مستند إلى القرآن الكريم وسنة رسول الله وطريقة الامام علي في الحكم، ولا ادل على ذلك قول الله تعالى ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾[٢٢]، وما الجنوح الا لتحقيق الاستقرار وفرض الامن العام للشروع بتنفيذ خارطة طريق جديدة بدون حروب تهدر فيها الدماء والمقدرات المالية.

ومن امثلة استثمار الاتفاق السياسي لفرض الاستقرار اصرار الامام الحسن على عدم قيام معاوية بأمر يربك الاوضاع كاستهداف القوى الواعية في المجتمع وبهذا الخصوص هدد الامام الحسن معاوية بنقض الاتفاق في حالة التعرض للقائد في جيش الامام قيس بن سعد بن عباده[٢٣]، وفي الوقت نفسه كان الامام يمنع الكثير من التصرفات العاطفية والحماسية من قبل اتباعه للاخلال بالاتفاق حفاظا على الاستقرار والتزاما ببنود الصلح.

خاتمة:

سيبقى طريق الحق مليئا بالصعوبات، وستبقى طرق الباطل مترعة بالشهوات، وبي هذا الطريق وتلك الطرق خيار واحد، ام ان تكون هنا أو تكون هناك، فلا يمكن ان تكون في مكانين في الوقت نفسه، سيما اذا كان المكانين

متناقضين في الوسيلة والغاية.

وبعد ان تبين ان طريق الاسلام الصحيح الموصل لرضا الله هو طريق محمد واهل بيته، اصبح لزاما علينا الالتزام به والتقيد بقواعده، فهو منهج متكامل للدنيا والاخرة، هو منهج مرتبط بعضه ببعض، لا يمكن ان نقبل بعضه ونرفض البعض الاخر، فهذا الرفض سيستتبع بالضرورة خرقا مؤثرا، خصوصا اذا كان هذا الخرق قائم على اساس العواطف غير الملبية للاندماج الموضوعي، فلربما يرى البعض بان عاطفته وحماسته في اطار الشرعية، ويحسب انه يحسن صنعا، ولكنه في حقيقة الامر يبتعد عن الطريق الصحيح، شأنه شأن من اعترض على الامام علي في صفين، وانتقد الامام الحسن في واقعة الصلح واستهتر بشخصه الكريم، وكمن اجتهد في مقابل دعوة الحسين للخروج على السلطان الجائر الظالم.

انها الحقيقة.. انها الفكرة.. انها المنهجية، محمد وال محمد منهج متكامل امام ان ترفضه بأجمعه فيصيبك ما اصاب اعدائهم في الدنيا والاخرة، أو تقبله فتنال سعادة الدارين.

ومن خلال هذا البحث الموجز والمتواضع، حاولت ان اعرض افكار اعتقد بان الامام الحسن المجتبى حرص على ايصالها للمجتمع، فمواقفه عليه السلام في جوانبها الشرعية الفقهية، والسياسية الاجتماعية، كانت منهاجا وافيا للدبلوماسية الراقية، والحنكة والحصافة المؤثرة، وافكاره في البناء الاستراتيجي للتعايش والتسامح كانت باهرة، وطرقه في حماية الامة ورعاية مصالح الخاصة كانت مفخرة لقومه ومثار اعجاب لعدوه وصديقه.

فلم يكن الامام الحسن عليه السلام ليترك المجتمع دون ان يحدد سبل الاستقرار، ويدبر وسائل الاعمار، ويلفت النظر إلى ما ينبغي ان تلتزم به الامة.

نسأل الله ان يجعلنا من العارفين لحق الامام الحسن عليه السلام ومن السائرين على طريق جده وابيه وامه واخيه...

هوامش البحث ومصادره

١- تاريخ الخلفاء للسيوطي ص١٤٩، دائرة المعارف الإسلامية - وجدي فريد ج٣ص٤٤٣ ط٢، بحار الانوار - المجلسي، ج١٠ ص١١٥.
٢- صلح الامام الحسن - السيد محمد الشيرازي ص٥٥ ط٢ سنة ٢٠٠٤ منشورات مؤسسة المجتبى - كربلاء المقدسة.
٣- الكامل - ابن الاثير ج٣ ص١٦٣.
٤- انظر، معالم الخلافة في الفكر السياسي الإسلامي - الدكتور محمد الخالدي ص٦٠ وما بعدها.
٥- تاريخ اليعقوبي ج٢ ص١٩٢، وفي مصادر اخرى بألفاظ مختلفة ولكن المعنى واحد.
٦- شرح نهج البلاغة - ابن ابي الحديد المعتزلي، ج١٩ ص١٦٦.
٧- الاخبار الطوال - احمد بن داود الدينوري ص٢٢٠.
٨- مقاتل الطالبيين - ص٢٦، بحار الانوار - المجلسي ج١٠ ص ١٠١-١١٥.
٩- تاريخ الطبري ج٢ ص٩٢، علل الشرائع - ابن بابويه ص٨١.
١٠- ابن الاثير ج٣ ص١٦٢، الطبري ج٦ ص٩٣.
١١- انظر / تاريخ الاسلام الثقافي والسياسي - صائب عبد الحميد ص٦٢٦ ط٢ سنة ٢٠٠٥.
١٢- عمدة الطالب - لابن المهنا ص٥٢.
١٣- شرح نهج البلاغة - ابن ابي الحديد ج٤ ص١٥، ويوجد في مصادر اخرى كالبحار ومقاتل الطالبيين.
١٤- المصادر السابقة.
١٥- المناقب - ابن شهر اشوب ج٤ ص٣٥.
١٦- تاريخ ابن كثير - لابن كثير ج٦ ص٢٢٠.
١٧- صلح الحسن - الشيخ راضي ال ياسين ص ٢٦٦.
١٨- الدينوري ص٢٠٣.
١٩- تاريخ الاسلام - الذهبي ص٩٣، المنتظم - ابن الجوزي ج٥ ص١٨٣.
٢٠- الكامل في اللغة والادب - المبرد ج٣ ص١٩٥.
٢١- انظر / الامام الحسن بن علي، شجاعة قيادة وحكمة سياسة - تقرير ابحاث اية الله الشيخ محمد السند، بقلم ابراهيم حسين البغدادي ص٦٦.
٢٢- الانفال ٦١.
٢٣- انظر / الامام الحسن بن علي، شجاعة قيادة وحكمة سياسة - تقرير ابحاث اية الله الشيخ محمد السند، بقلم ابراهيم حسين البغدادي ص٨٠.